انتهى إليه عِلْم النَّحْو والعربية ببغداد، وسمع الحديث، وطال عُمُره، وتمتَّع بجوارحه وعقله، وقال: ما سَمِعْتُ في المَدْح أبلغ من شعر أبي فراس بن حَمْدان: [من الكامل]

وأمامك الأعداءُ تَطْلُبُهُمْ ووراءَكَ القُصَّادُ في الطَّلَب
فإذا سَلَبْتَهُمُ وَقَفْتَ لهم فَسُلِبْتَ ما تحوي من السَّلَبِ[١]

وما سمعتُ في الذَّمِّ أبلغ [من بيتٍ لمسكويه][٢]: [من الطويل]

وما أنا إلاَّ المِسْكُ ضاعَ وعندكم يضيعُ وعند الأكرمينَ يَضُوعُ

السنة الثَّالثة والأربعون وخمس مئة

فيها فارق جماعةٌ من الأُمراء السُّلْطان مسعود، وكان على هَمَذَان، بسبب صبيٍّ كان عنده يقال له خاصبك بن البلنكري[٣] كان قد استولى عليه، وقصدوا بغداد، ومعهم محمد شاه بن محمود، وهم: البقش وألدكز وقيصر وألطرنطاي وعليّ بن دُبَيْس وغيرهم، ونزلوا شَهْرابان[٤]، فانهزم النَّاس من بين أيديهم، وقُطِعَ الجسر ببغداد، [يقال: إنَّ شحنة مسعود ببغداد قطع الجسر][٥]، وكان الغزنوي الواعظ قد تولَّى عمله، وعَمِلَ له درابزينات من الجانبين، فبعث الخليفةُ ابنَ العَبَّادي الواعظ إليهم، يقول: أميرُ المؤمنين يقول لكم في أي شيء جئتم؟ وما مقصودكم؟ فإنَّ النَّاسَ قد انزعجوا بسبب مجيئكم. فقالوا: نحن عبيد هذه العتبة الشريفة، وعبيد السُّلْطان ومماليكه، وما فارقناه إلاّ خوفاً من خاصبك، فإنه أفنى الأُمراء؛ قَتَلَ عبدَ الرحمن بن طُغايرك[٦] وعَبَّاساً وبوزبا، وعدُّوا جماعة، وما عنِ النُّفوس عِوَض، فإمَّا نحن وإمَّا هو، فإنَّه هو الذي يحمل السُّلْطان على قَتْلنا، وما نحن خوارج ولا عصاة.

---

(١) لم أجد البيتين في «ديوانه» المطبوع بتحقيق د. سامي الدهان، بالمعهد الفرنسي بدمشق، ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م بيروت.

(٢) في (ع) و(ح) غير واضحة، والمثبت ما بين حاصرتين من «المنتظم»: ١٠/ ١٣٠.

(٣) قتل بعد موت مسعود سنة (٥٤٨هـ)، انظر «المنتظم»: ١٠/ ١٥٣-١٥٤، و«الكامل»لابن الأثير: ١١/ ١٦٠-١٦٣، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠٨-٢١٣.

(٤) قرية كبيرة شرقي بغداد. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٥.

(٥) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٦) في (ع) و(ح) طويرك، ومثله في «المنتظم»: ١٠/ ١٣٢، والصواب مثبت من «الكامل»: ١١/ ١١٦، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٦، ١٩٩.

ثم دخلوا بغداد في ربيع الأوَّل، ومدُّوا أيديهم إلى ما يختص بالسُّلْطان، وكبسوا خانات باب الأَزَج، فأخذوا الغَلَّة منها، فثار العوام عليهم، وقاتلوهم، فبعث الخليفةُ إلى مسعود يقول: أما الشِّحْنة الذي من قِبلك فقد هَرَبَ إلى تَكْريت هو وأمير الحاج، وقد أحاط القوم بالبلد، ومدُّوا أيديهم وأفسدوا، وما يمكنني أَنْ أتَّخذ عسكراً لأجل العَهْد الذي بيننا وبينك. فكتب إليه: قد برئت ذِمَّة أمير المؤمنين من العهد الذي بيننا، وقد أَذِنْتُ لك أن تتخذ العسكر، وتحتاط لنفسك والمسلمين. فحينئذٍ استعدَّ الخليفة، وأمر باستخدام العساكر، وأَظْهَرَ السُّرادق والخِيَم، وسدَّ العقود، وحفر الخنادق، والقومُ ينهبون ما حول البلد من الغَلاَّت والأموال، وعَبَرَ طائفةٌ منهم إلى الجانب الغربي، فقسَّطوا على أهله أموالاً[١]، وساروا إلى الدُّجَيل[٢]، وأخذوا بناتِ[٣] النَّاس ونساءَهم، وجاؤوا بهم إلى الخيام، وجاءت زواريق فيها غِلالٌ فأخذوها، ونشبتِ الحرب، وقُتِلَ جماعةٌ من الفريقين، فأرسل الخليفة إليهم الغَزْنوي الواعظ يقبِّح عليهم ما فعلوا، وقال: لو جاء الكُفَّار ما فعلوا مِثْلَ هذا الذي فعلتم، أيُّ ذنب لأهل الرَّساتيق والقُرى؟ واستنقذ منهم النِّساء وبعض المواشي، وجاء أصحابها فمن عرف شيئاً أخذه.

وفي جُمادى الأولى جلس الخليفة في منظرة الحَلْبة[٤]، وعَرَضَ العساكر، وأمر العوام بلُبْس السِّلاح، والذَّبِّ عن نفوسهم وأموالهم، وكان البقش نازلاً عند دار السُّلْطان، فرحل إلى ظاهر البلد تطييباً لقلب الخليفة، وقطعا الحرب، وبعث الخليفةُ فَسَدَّ باب السُّوق من ناحية دار السلطان، وكانوا يمتارون من سوق السُّلْطان، فأصبحوا إلى باب البلد، فرأوه مسدوداً، فجاء منهم ألف فارس إلى ناحية الجَعْفرية، فثلموا في السُّور عِدَّة مواضع، وصَعِدُوا، وبعثوا الرَّجَّالة، ففتحوا الباب الذي سَدَّه الخليفة، ونقضوا البناء، وكسروا الباب، وأخذوا حديده، وبعث البقش رسولاً إلى الخليفة يقول: لأيِّ شيء سددتم في وجوهنا الباب، وإنما كُنَّا نسترزق من سوق السلطان؟ فلم

(١) في (ع) الأقساط، والمثبت من (ح).

(٢) الدجيل: نهر مخرجه من أعلى بغداد، بين تكريت وبينها، مقابل القادسية، «معجم البلدان»: ٢/ ٤٤٣.

(٣) في (ع) بنين، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما في «المنتظم»: ١٠/ ١٣٢.

(٤) الحلبة: محلة كبيرة واسعة في شرقي بغداد عند باب الأزج. «معجم البلدان»: ٢/ ٢٩٠.

يلتفت إلى قوله، وأصبح العوام، فخرجوا إليهم، فقاتلوهم، فاستجرُّوهم، فأبعدوا عن البلد، وخرج عليهم الكمين، فقتلوا من العوام نحواً من خمس مئة، ولم يتجاسر أحدٌ أن يخرج من أهل المُقَتَّلين، فنادوهم: تعالوا خذوا قتلاكم.

فلمَّا كان عشية ذلك اليوم، وهو سادس جُمادى الآخرة جاء الأُمراء إلى الرَّقَّة المقابلة للتَّاج، ورموا أنفسهم، وقالوا: ما عندنا مما جرى عِلْم، وإنما هو فعلُ أَوْباشٍ لم نأمرهم به. فلم يلتفت إليهم. فقالوا: نحن قيامٌ على رؤوسنا ما نبرح أو يعفو عنَّا أمير المؤمنين. فَعَبَرَ إليهم خادِمٌ وقال: قد عفا عنكم، فامضوا واستحلُّوا من أهل القَتْلى. ثُمَّ أمر الخليفةُ بإصلاحِ ما هدموا من السُّور.

ثم اختلف العسكر، فأخذ ألدكز الملك محمد شاه، وطلب بلاده، وسار البقش وابنُ دُبَيْس والطرنطاي نحو الحِلَّة، وسكنَ النَّاس.

وقبضَ الخليفةُ على وزيره ابن صدقة، ومات قاضي القضاة الزَّيْنَبي، وتقلَّد القضاء علي بن أحمد بن علي بن محمد الدَّامَغَاني.

وفي ربيعٍ الأوَّل نزلتِ الفرنج على دمشق؛ خرج ملكُ الألمان[١] من البحر في جيوشٍ لا تحصى، واجتمع إليه ملوكُ السَّاحل [وكنودها] [٢]، واجتمعوا في البيت المقدس، وصلُّوا صلاةَ الموت، وعادوا إلى عكا، وفرَّقوا سبع مئة ألف دينار في العساكر، ولم يُظْهروا أنهم يريدون دمشق، وَوَرُّوا بغيرها، وهرب المسلمون من بين أيديهم، وجمعوا الغِلال والأَتْبان[٣] وأحرقوها، وكان صاحبُ دمشق مجير الدِّين أبق ابن محمد بن بوري بن طُغْتِكِين، ومُدَبِّر الأمور معين الدين أُنَر، فلمَّا كان يوم [السبت][٢] سادس ربيع الأول لم يشعر أهل دمشق إلا وملك الألمان قد ضُرِبَتْ خيمته [على باب دمشق] [٢] في الميدان الأخضر، وكانوا ستة آلاف فارس وستين ألف راجل، وقيل: كانوا مئة ألف راجل وعشرة آلاف فارس، وقيل: إنهم تفرَّقوا على البلد، فنزل ملك الألمان في الميدان [الأخضر][٢] في ستة آلاف فارس وثلاثين ألف

(١) هو كنراد الثالث . ConradIII

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) الأتبان جمع، مفردها تبنة، وهي ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه تعلفه الماشية، ويجمع أيضاً على تبن، انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٨٧ ، و«المعجم الوسيط»: ١/ ٨٢ .

راجل، ونزل قرواس[١] ملك السَّاحل على الشَّرف الشّمالي في ثلاثة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، ونزل الكُنُود والخَيَّالة على الشَّرف القِبْلي في مئة ألف راجل، واجتهد المسلمون في إحصائهم فلم يقدروا، وخرج إليهم معين الدين ومجير الدِّين في مئة ألف راجل سوى الفرسان، فقاتلوهم في اليوم الأول قتالاً شديداً، فَقُتِلَ من المُسْلمين نحو مئتين، [منهم الفِنْدلاوي، وسنذكره في موضعه][٢]، وكان القتال يعمل ليلاً ونهاراً، وضايقوا البلد حتى نزلوا على أبوابه.

وكان [معين الدين][٢] أُنَر قد كاتب سيفَ الدِّين غازي صاحب المَوْصِل قبل [نزول الفرنج على دمشق يستصرخ به، ويخبره بشدة بأس الفرنج، ويقول: أَدْرِكْنا. فسار سيف الدين في][٣] عشرين ألفاً، فنزل بحيرة حِمْص، وبعث إلى [معين الدين][٢] أُنَر يقول: قد حضرتُ بجندٍ عظيم، ولم أترك ببلادي مَنْ يحمل السِّلاح، فإنْ أنا جئتُ ولقَينا الفرنج وكانت علينا هزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يَسْلَمْ منا أحد، وأخذتِ الفرنجُ دمشق وغيرها، فإنْ أحببتَ أن أقاتلهم، فَسَلِّم البلدَ إلى مَنْ أَثِقُ به، وأنا أحلف لك إن كانت النُّصرة لنا [عليهم أنني][٢] لا أدخل دمشق، وأَرْجِعُ إلى بلادي، فَمَطَلَه [معين الدين][٢] أُنَر، وبعث إلى السَّواحلة يقول: هذا ملك الشَّرْق نازِلٌ على حِمْص، وليس لكم به طاقة، فإن رَحَلْتُم وإلا سَلَّمْتُ دمشق إليه، وهو يُبيدكم، وأنا أُعطيكم بانياس. فأجابوه، وحَسَّنوا للغرباء الرَّحيل، فاتَّهموهم.

وكان زمان الفواكه، فنزل الفرنجُ الوادي، فأكلوا منها شيئاً كثيراً، فانحلَّتْ أجوافُهم، ومات منهم خَلْقٌ كثير، ومَرِضَ الباقون.

ولمَّا ضاق بأهلِ دمشق الحال أخرجوا الصَّدقَات والأموال على قدر أحوالهم، واجتمع النَّاس في الجامع: الرِّجال والنِّساء والصِّبْيان، ونشروا مُصحف عثمان رضوان الله عليه، وحثوا الرَّماد على رؤوسهم، وبكوا وتضرَّعوا، فاستجاب الله لهم،

---

(١) كذا في (ع) و(ح)، وفي (م) قرولش، وفي (ش) فرويس، والمراد على الأغلب هو ملك بيت المقدس، ويراد بالساحل أي فرنج الشام تمييزاً لهم عن الفرنج القادمين مع الحملة، وقد عُبِّر عنهم بالغرباء، وكان ملك بيت المقدس وقتئذٍ هو بلدوين الثالث، وكان تحت وصاية أمه، انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/ ٤٥١.

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) في (ع) و(ح): قبل نزولهم يستصرخ به، فسار في عشرين ألف، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكان مع ملك الألمان قِسِّيسٌ [كبير][١]، طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق، فركب حماره، وعلَّق في عنقه صليباً، وجعل في يديه صليبين وعلَّق في عُنُق حماره صليباً، وجميع الأقساء بين يديه بالأناجيل والصُّلْبان، وركبتِ الملوكُ والخَيَّالة والرَّجَّالة، ولم يتخلَّف من الفرنجية أحد إلا من يحفظ الخيام، وقال لهم القِسِّيْس: قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم دمشق. وقصدوا البلد، وفتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام، وحملوا حملة رجلٍ واحد، وكان يوماً لم يُرَ في الجاهلية والإسلام مِثْله، وقصد واحد من أحداث دمشق القِسِّيْس،وهو في أَوَّلِ القوم، فضربه، فأبان رأسه، وقَتَلَ حماره، وحَمَلَ الباقون، فانهزم الفرنج، وقتلوا منهم عشرة آلاف، وأحرقوا الصُّلْبان والخيام بالنِّفْط،وتبعوهم إلى الخيام، وحال بينهم الليل، فأصبحوا وقد رحلوا، ولم يبق لهم أثر، وبعثوا يطلبون من أُنَر بانياس، فقال: إنما وعدتكم بها إذا رَحَّلْتم [الفرنج][١]، وهذا فِعْلُ الله تعالى. فقالوا: نحن نعود إلى دمشق، ونقيم عليها فلا نرحل حتى نأخذها. وكانوا قد أحرقوا الربوة، وهدموا القِباب، وقطعوا الأشجار، ودرسوا ظاهر دمشق، فرأى أُنَر أن يفدي دمشق ببانياس[٢]، وكان سيف الدين قد طَمِعَ فيها، فأعطاهم بانياس، وبقيت في أيديهم حتى فتحها نور الدين [محمود][١] رحمه الله[٣].

وكان قد وقع بدمشق أيام الحصار طاعون، فقال أبو الحَكَم الأَنْدلسي[٤]: [من الكامل].

ولقد حَلَلْتُ من الشَّآم ببُقْعَةٍ ... أَعْزِزْ بساكنِ رَبْعها المسكونِ
أضحى مجاوِرَها العدوُّ فأَهْلُها ... شهداءُ بين الطَّعْنِ والطَّاعونِ[٥]

وعاد سيف الدِّين إلى بلاده.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) في (م): فرأى معين الدين من المصلحة أن يحفظ دمشق ببانياس. وفي (ش): من المصلحة بقاء دمشق ببانياس.

(٣) كان فتحها سنة (٥٦٠هـ).

(٤) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الأندلسي، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٤٩هـ).

(٥) «نفح الطيب»: ٢/ ٦٣٧-٦٣٩ .

وفيها أزال نور الدين في حلب من الأَذان «حيَّ على خير العَمَل» وسبّ الصَّحابة رضي الله عنهم وقال: مَنْ عاد إليه قَتَلْتُه.

[وساعده على ذلك الفقيه برهانُ الدِّين أبو الحسن علي الحنفي[١]، وغيره][٢].

وفيها ظهر بمِصر رجلٌ من ولد نزار يطالب بالخلافة، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير، وجَهَّز إليه الحافظ العساكر، فالتقوا بالصَّعيد[٣]، فَقُتِلَ من الفريقين جماعةٌ، ثم انهزم النِّزاري، وقُتِلَ ولده.

وفيها أغار نورُ الدِّين على بلاد الفرنج، وفتح عِدَّة حصون، وأَسَرَ وقَتَلَ، واجتاز بأنطاكية، وبات قريباً منها [آمناً أَنَّه في بلده، فبيَّتَهُ البرنس صاحِبُها ليلاً، وهم غارُّون، فما نجا إلا القليل، وهرب نور الدِّين إلى حلب، وكان ذلك غَفْلَةً من أصحابه حيثُ لم يكن لهم يَزَك[٤]][٢].

وحجَّ بالنَّاس قَيْماز.

فصل: وفيها توفي

عليُّ بنُ الحسين بن محمد بن علي[٥]

أبو القاسم، قاضي القضاة، الزَّيْنبي.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن محمد البَلْخي، وستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٤٨هـ).

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) ذكر ابن القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٦٩ أن مكان الوقعة كان بالقرب من الإسكندرية، وفي «اتعاظ الحنفا»: ٣/ ١٨٦ : وواقعهم على الحمامات. وعلق محققه بقوله: لعل المقصود به ذات الحمام الواقعة في الصحراء الغربية على مسافة يوم من الإسكندرية.

(٤) اليزك: كلمة فارسية تعني طليعة الجيش، وكانت هذه الطليعة تتقدم الجيش لاستكشاف جبهة العدو قبل توجه الجيش نحوه، انظر «الجيش الأيوبي»: ١٧٧-١٨٠ .

(٥) له ترجمة في «المنتظم»: ١٠/ ١٣٥-١٣٦ ، و«الكامل»: ١١/ ١٤٦ ، و«الوافي بالوفيات»: ٢١/ ٥١ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٠٧-٢٠٨ وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

والزينبي: نسبة إلى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، قال السمعاني: وظني أنها زوجة إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، انظر «الأنساب»: ٦/ ٣٤٥ .

ولد في نصف ربيع الأَوَّل سنة سبعٍ وأربعين[١] وأربع مئة، وسَمِعَ الحديث وتفقَّه، وكان المسترشدُ يحبُّه، وكان مهيباً وقوراً؛ قَلَّ أَنْ تُسْمع منه كلمة، وطالت ولايته، فأحكمه الزمان، وخَدَمَ الرَّاشد، وناب في الوِزارة، ثم استوحش من الرَّاشد، فخرج إلى المَوْصِل، ووصَلَ الرَّاشد، وبلغه حديثُ المحضر الذي ثبت عليه، فقال له: اكتب خطَّك بإبطالِ ما جرى. فامتنع، فتواعَدَه زَنْكي، وناله بشيء من العذاب، ثم أَمَرَ بقتله، فَدَفَعَ الله عنه، ثم بعث المقتفي وطلبه، فبعث به زنكي إليه فبايعه، ثم ناب في الوِزارة، ثم إنَّ المقتفي أَعْرَضَ عنه بالكُلِّية، وولَّى ابن المُرَخِّم، فأبطل أَحكامه، ولم يبق له توقيع ينفذ إلا اسم القضاء لا غير، فَمرِضَ أياماً، وماتَ يوم عيد النَّحْر، وصلَّى عليه ابنُ عمِّه طلحة بن علي[٢] نقيب النُّقباء، ودُفِن إلى جانب أبيه.

وقال ابنُ القلانسي: صلَّى عليه المقتفي[٣].

ورآه بعضُ أصحابه في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال له: اذهب إلى [أبي عبد الله يعني ابن البيضاوي القاضي، وهو ابن أخي قاضي القضاة، وأحد أوصيائه][٤] وقل له: لِمَ تضيِّق صَدْر غُصن وشهية؟ يعني سراريه. فقال له الرجل: فما فعل الله بك؟ فقال: غَفَرَ لي. ثم أنشد: [من الطويل]

وإنَّ امرءاً ينجو من النَّار بعدما ... تَزَوَّدَ مِنْ أعمالها[٥] لسعيدُ

---

(١) كذا، وهو من أوهام سبط ابن الجوزي، وقد تابعه على ذلك ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٢٨٢، والزركلي في «الأعلام»: ٤/ ٢٧٩ وقد اختلف في سنة ولادته، فذكر ابن الجوزي في «المنتظم» أنها في سنة (٤٧٠هـ)، ثم ذكر عمره في ترجمته فقال: ست وسبعون سنة، مما يعني أن ولادته سنة (٤٦٧هـ)، وذكر الذهبي والصفدي أن ولادته كانت سنة (٤٧٧هـ)، وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» ترجمته في وفيات سنة (٥٤٣هـ)، وقال: إنه جاوز الستين. والله أعلم.

(٢) ستأتي ترجمته في وفيات سنة (٥٥٨هـ).

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٧١.

(٤) في (ع) و(ح): اذهب إلى القاضي ابن الأنصاري، وفيها خطأ وتحريف، فالأنصاري صوابها البيضاوي، وهو القاضي أبو الفتح عبد الله بن محمد بن محمد، وهو أخو قاضي القضاة أبي القاسم الزينبي لأمه، وقد توفي قبله سنة (٥٣٧هـ)، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٨٢، والمراد بالخبر ابنه أبا عبد الله، وهو ما أثبته ما بين حاصرتين من «المنتظم»: ١٠/ ١٣٦، والقصة فيه على تقديم وتأخير بها.

(٥) في (ع) و(ح): أعماله، ومثله في «الوافي بالوفيات»، والمثبت من «المنتظم».

وأصبح الرجل، فجاء إلى ابن البَيْضاوي، فأخبره بالمنام، فقال: سبحان الله! والله لقد بتُّ متفكراً في تقليل ما ينوبهن، أما الآن فلا أُغَيِّر عليهن شيئاً.

وكان فاضلاً عفيفاً، وإنما نقم عليه المقتفي بسبب المحضر الذي أثبته على الرَّاشد، ولم يكن له فيه ذنب، وإنما ابنُ عمه الوزير [ابن] [١] طِراد حمله عليه.

يوسف بن دُوْناس بن عيسى[٢]

أبو الحَجَّاج، الفقيه المالكي، المَغْربي، الفِنْدلاوي. [ذكره الحافظ ابنُ عساكر، وقال:] [٣] قدم الشام حاجًّا، وسكن بانياس مُدَّة، وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها، [ودرَّس بها مذهب مالك، وحدَّث بالموطأ وغيره. قال الحافظ: وعلَّقت عنه أحاديث يسيرة] [٣]، وكان شيخاً، حَسَنَ المفاكهة، حُلْو المناظرة، شديد التَّعصُّبِ لأَهْل السُّنَّة، كريمَ النَّفْس، مُطَّرحاً للتكلُّف، قويَّ القلب، صاحب كرامات.

[ذكر مقتله][٣]: ولما كان اليوم السَّادس من ربيع الأول[٤] أول قتال الفرنج لدمشق خرجَ [الفِنْدلاوي][٣] راجلاً ومعه أصحابه فالتقاه معين الدِّين أُنَر، فقال [له][٣]: يا شيخ، إنَّ الله قد عَذَرَك، ليس لك قوةٌ على القتال، ونحن نكفيك، فارجع. فقال: قد بعتُ واشترى، لا أَقيلُه ولا أَسْتقيله، وقرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، ومضى نحو الرَّبوة، فالتقاه طُلْبٌ[٥] بين الرَّبوة والنَّيْرب، فقتلوه، [فقال[٦] أبو الحكم الأندلسي هذه الأبيات: [من الهزج]

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(٢) له ترجمة في «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٦٤، و«تاريخ ابن عساكر» اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ب - ٤٢ (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق)، ومختصره لابن منظور: ٢٨/ ٨٠، و«معجم البلدان»: ٤/ ٢٧٧-٢٧٨، و«اللباب»: ٢/ ٤٤٢، و«كتاب الروضتين»: ١/ ١٨٦-١٨٧، ١٩١، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٥٢، و«الوافي بالوفيات»: ٢٩/ ١٩٥-١٩٦ و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٠٩-٢١٠، وفيهما تتمة مصادر ترجمته.

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) في النسخ الخطية: شعبان، وهو تحريف، وقد سلف شهر المعركة على الصواب ص٣٨١.

(٥) الطُّلْب، وجمعها أطلاب، وهي بمنزلة الكتائب، يكون على رأس كل مئتي فارس أو مئة أوسبعين فارساً أمير مقدم. انظر «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين»: ١٥٣.

(٦) في (ع) و(ج): فقتلوه، وحمل إلى.. والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

بِشَطَّيْ نَهْرِ داريّا أمورٌ ما تَواتينا
أتانا مئتا ألفٍ عديداً أو يزيدونا
فداسوا المَرْجَ والغُوطة أيضاً والميادينا
ورايات وصُلْباناً على مسجد خاتونا
فقلنا إذْ رأيناهم لعلَّ اللهَ يكفينا
وشيخاً فِنْدلاوياً فقيهاً يعضُدُ الدِّينا

ومنها:

ولكنْ غادروا القِسِّيْسَ تحتَ الأَرْضِ مدفونا

من أبيات[1].

وقال الحافظ ابن عساكر: وأقام مدة ببانياس خطيباً، وكان شيخاً كبيراً، ودرَّس بدمشق في حَلْقة المالكية، ولما قُتِلَ حُمِلَ] إلى الباب الصغير، فدفن به، وقبره من جانب المُصَلَّى قريباً من الحائط، وعليه بلاطةٌ منقورٌ فيها شَرْحُ حاله.

ورآه بعضُ أصحابه في المنام في تلك الليلة فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا في جنَّاتِ عَدْنٍ مع قوم على سُرُرٍ متقابلين.

السَّنة الرَّابعة والأربعون وخمس مئة

فيها في ربيع الأول استوزر المقتفي أبا المظفر يحيى بن محمد بن هُبيرة، عَوْنَ الدِّين، وخَلَعَ عليه.

وفي رجب عاد البقش، وجَمَعَ الجموع، وقَصَدَ العراق، وانضمَّ إليه ملك شاه بن محمود وعليُّ بنُ دُبَيْس، وخَلْقٌ من الأُمراء والتركمان، فلما بقي بينهم وبين بغداد ثلاثة فراسخ بعثوا إلى الخليفة يطلبون منه الخُطْبة لملك شاه، فلم يجبهم، ودوَّنَ العسكر، وحُفرت الخنادق، وبعث إلى أهل الجانب الغربي يأمرهم بالعبور إلى حريم الخلافة، وبعث ابنَ العَبَّادي إلى مسعود يستحثه ويعرِّفُه بما جرى، ويقول: عَجِّلْ بالمجيء.

(١) انظر الأبيات وغيرها في «كتاب الروضتين»: ١/ ١٩٢-١٩٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ.